أبو الطيب يعثر على موضوعه

كل كاتب ممتاز أو شاعر أو قصصي ، بل كل فنان أياً كان فنه لا يستطيع أن يبدع إلا إذا كان ينطلق في إنتاجه عما نسميه (الإلهام) . قد يكون كل من هؤلاء مالكاً ناصية صناعته متحكماً في أدواتها ـ سواء أكانت أدواته لفظية أو لونية أو تصويرية ـ . وقد يستطيع أن يبلغ ذروة البراعة في صناعته ، ولكن الإبداع مرتبة أعلى من ذلك علواً كبيرا . إنه لا يستطيع أن يبلغ مرتبة الإبداع إلا إذا كان إنتاجه نابضاً بالحياة والصدق وكان موحياً مشعاً بالمشاعر القوية . إنه يكون في هذه الحالة جامعاً بين التحكم في أساليب الصناعة وشحن إنتاجه بالقوه الحيوية التي تحمـــل الى الناس حرارة نفسه وقوة شعوره فيجعلهم يشاركونه في شعوره العميق . وهذا هو السر في اننا نصطدم في بعض الأحيان ـ أو في كثير من الاحيان ـ بإنتاج تافه لأديب مشهور معروف بالإبداع . فالأديب أو الفنان قد يكون صادراً في بعض حالاته عن إلهام قوي غامر ، وقد يكون في حالات أخرى صادراً عن تكلف وتعمد . قد نجد الشاعر في بعض حالاته مليئاً بالمعنى متدفقاً في البيان تدفقاً طبيعياً مشبعاً بالحرارة موحياً بالحياة والجمال ؛ وقد نجده في حالات أخرى باهتاً لا نكاد نعرفه . وفحول شعرائنا العرب من الأمثلة الدالة على ذلك ، فهم يختلفون في الإجادة اختلافاً كبيراً بين الإبداع الذي يبلغ بهم الذروة ، وبين الهبوط والجمود والآلية التي قد تنزل بهم الى مستوى (السخف) . ومن أمثلة هؤلاء الفحول من اعتدنا ان نحلهم بأعلى مراتب الإبداع مثل أبي تمام والبحتري والمتنبي ، فكل منهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسمو حتى يحلق في أعلى الآفاق ، وقد يسف حتى يوقع في النفوس الاشمئزاز والأسف . وليس شعراء العربية هم الوحيدين في ذلك الاختلاف . فالشاعر الانجليزي (شكسبير) الذي اعتبره الانجليز يوماً من الأيام نبي شعرهم وعبقري زمانه ، هبط في بعض إنتاجه حتى بلغ عندهم مبلغ السماجة والجفاف . والقصصي (هنري جيمس) قد وصل إلى ذروة الإبداع في قصصه حتى اعتبره قومه معبود الأدب ، وهبط أحياناً حتى ان النقاد لم يجدوا سبيلاً الى تعليل هبوطه إلا بأن قالوا إنه قد خلا من الإلهام . فما السر في هذا الإلهام الذي يشبه في الأدب سر الحياة عند الأحياء في غموضه وخفائه ؟ فلنقتبس بعض ما قيل في محاولة تفسير ذلك السر الخفي : (١)

« إن كلاً منا يشتمل في نفسه على شيء من الشاعر وشيء من المثال وشيء من الموسيقي ومن المصور والكاتب . ولكن الذي نشتمل عليه من هؤلاء جميعاً قليل جداً بالقياس إلى ماعند الفنانين الموهوبين . فإن هؤلاء الموهوبين يملكون من المقدرات البشرية مايسمو بهم إلى درجات العلا . فليس لنا نحن إلا المقدرات التي يمكن أن نسميها انطباعات أو مشاعر مما لايصل إلى مرتبة (الإدراك الكلي الشامل) أو الإدراك (الذوقي الإلهامي) ، وهي المرتبة التي تجعل الأديب أو الفنان يستوعب الصورة النفسية الشاملة للموضوع الذي يعالجه . وذلك على شرط أن يتوفر له (الموضوع) الذي يجعله يتوفر على استيعاب صورته النفسية الشاملة .

إن المصور إنما هو مصور مبدع لأنه يرى موضوعه فيرى فيه مايحسه الآخرون أو يلمحونه وإن كانوا لايرونه ولا يستوعبون صورته النفسية الشاملة . إننا نظن أننا نرى ابتسامة على وجه ولكنا لانرى في الحقيقة سوى أثر مبهم من الابتسامة . نحن لاندرك كل خصائص تلك الابتسامة

---

(١) خلاصة من أقوال فيلسوف الجمال (بنديتو كروتشي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما يدركها المصور المبدع بعد أن يستوعبها بروحه ويكون قادراً على إثبات خصائصها على لوحته . إننا لاندرك من الناس ـ حتى من أقرب الناس الينا ـ أكثر من ملامحهم الجسمانية الظاهرة على أكثر تقدير حتى ولو كان ذلك الصديق ممن يكون معنا في كل يوم وكل ساعة . وأما الجوهر الذي يكمن في هذه الملامح الجسمانية فهو الذي يمكننا من تمييزه عن سواه فالمعرفة الإلهامية التي ندركها بالروح هي المعرفة الشاملة الحقيقية .

وهذه المعرفة أثر روحاني لايحدث عند الفنان إلا إذا استغرق استغراقاً كاملا صادقاً في الموضوع الذي يختاره وينصرف إليه انصرافاً تاماً فيهب له كل قوى روحه .

فإذا ماتحقق ذلك للفنان وأخذ في التعبير عن موضوعه بطريقته المادية التي اعتادها وبأسلوبه الذي تمكن منه في صناعته ـ سواء أكانت لفظية أو غير لفظية ـ أمكنه أن ينقل إلى الناس صورة صادقة طبيعية تمثل كل الخصائص الروحية التي شحن بها نفسه ، فيمكنه أن يطلع الناس على ما استوعبه في روحه من نافذته السحرية .

والأديب أو الفنان لايتعمد اختيار الموضوع الذي يمكن أن يملأ روحه فإن ذلك الاختيار لايتأتى له بالبحث عنه بالعقل بحثاً مقصوداً . فالأديب مثلا لايقدر أن يختار لنفسه موضوعاً ليستغرق فيه بروحه بأن يجلس إلى مكتبه ويستعرض الموضوعات أو الأشخاص الذين يريد أن يتخذ منهم موضوعات للتعبير عنها بفنه ، ثم يختار بعقله ما يظن أنه يستطيع أن يستغرق بروحه فيه من هذه الموضوعات .

الاختيار الموفق إنما يحدث بالطبع من غير تعمد . التجربة وحدها هي التي تستطيع أن تتيح للفنان أو الأديب فرصة الاختيار الموفق الذي يصادف هوى في نفسه . التجربة وحدها هي التي تعرض على الأديب أو الفنان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما يستطيع أن يقتفيه حين يندفع نحوه بروحه من تلقاء نفسه . ان الإنسان لا يمكن أن يشعر بالحب نحو شخص إذا بحث عن صورة يحبها بعقله . ولا يمكنه أن يشعر بالحب نحوه وإن رأى صورته الفوتوغرافية . ليس غير التجربة ما يتيح للإنسان أن يهتدي إلى الشخص الجدير بحبه . التجربة وحدها هي التي تحرك الروح وتجعلها تتأثر فتحب أو تكره وتشعر بالاعجاب أو النفور . وهكذا تكون الحال في اختيار الأديب أو الفنان للموضوع الذي يحرك نفسه ويجعله يستغرق فيه ويستوعبه بكل خصائصه في روحه . ومن هنا يحدث الإلهام وتحدث قدرة الفنـــان على الإبداع والتصرف فيما لديه من أساليب الصناعة . فما الإبداع والجمال وحسن التصرف الموفق في أساليب الصناعة الا نتائج للإلهام الذي يقع في روحه من الموضوع الذي اهتدى اليه فيمكنه ابلاغ ما في نفسه من المشاعر إلى الناس بطريقة بسيطة سهلة متدفقة تحمل كل ما في روحه من المشاعر الصادقة الموحية ـ وهنا سر الإبداع والجمال في الإنتاج الأدبي أو الفني .

ونكتفي في هـذه الكلمة الموجزة بالحديث عن الشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي وكيف قضى شطراً من حياته هائماً مضطرباً ضالاً كأنه يبحث عن موضوع جدير بأن يستغرق فيه ويستوعبه بروحه كي يبلغ ذروة الإبداع في فنه ، وكيف استمر هائماً ضالاً مجدباً يائساً حتى اهتدى آخر الأمر إلى الموضوع الذي يستطيع أن يبدع فيه .

بدأ المتنبي حياته كما هو معروف ـ في عصر مجدب ليس فيه الكثير مما يحرك الروح من جلال أو بطولة أو من عدالة ترتاح اليهـــا النفوس في الحياة السياسية أو الاجتماعية . لم يكن في ذلك العصر ما يحرك الشعور سوى مواطن محدودة شخصية كانت قد تشعر بحركة محدودة من حب أو كره ومن اعجاب أو نفور لا يبلغ مبلغ العمق المبدع الذي يحرك الروح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان الأديب قد يشعر بدافع جنسي نحو امرأة لا يرى منها سوى جسمها وهي في العادة جارية تحترف الحب . ولم يكن في مجال الحياة الاجتماعية مجال لبطولة تدفع الى الإعجاب أو عدالة اجتماعية تدفع الى الارتياح والسعادة . كان العصر مجدباً اجداباً محزنا . فنشأ أبو الطيب في البادية ، ولسنا نلمح في حياته ما يدل على أن البـــادية أشعرته بشيء من تلك الحركة الشعورية المحدودة التي ذكرناها . ولم يجد أبو الطيب في الحياة الاجتماعية في البادية فرصة تتيح له أن يجد لنفسه مكانة اجتماعية يرضاها . فحزن وسخط وقلق وهجر البادية الى الحضر لعله يجد فيه مكاناً يرضاه لنفسه في مجتمع أو في كنف أمير سياسي أو عظيم سري يستطيع أن يلجأ اليه ويستند عليه في محاولة بلوغ المكانة التي يتوق اليها ، ولكنه كان حيث يذهب لا يجد إلا خيبة وراء خيبة تصدمه . وحاول أن يصل الى المكانة التي يطمح اليها عن طريق الشعر ولكنه خاب أيضاً في ذلك كان يشعر في نفسه بكبرياء واعتزاز فضاق بما يتطلبه التقرب الى الأمراء والرؤساء من المدح والتزلف لأنه كان يشعر بالجدب من الدافع النفسي إلى الإبداع الذي يطمح اليـه ليصل إلى مكانة الشاعر الذي تلتفت اليه الأنظار وتُعلي مكانته .

فهو في هذه الفترة من حياته لا يعبر في شعره ــ وهو صادق ــ إلا عن شعور وحيد أجاد في التعبير عنه وهو الشعور بالخيبة والضيق بالحياة واليأس منها . وكان أحياناً يندفع في تعبيره مع حلم من أحلام اليقظة ، فيعبر عن رغبته في التحطيم والثورة وخوض الدماء في سبيل طموحه .

فيقول حانقاً قصيدته المعروفة التي مطلعها :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقـــام المسيح بين اليهود

وفيها يتحدث عن شعوره بفضل نفسه ويلوم نفسه قائلاً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أين فضلي إذا قنعت من الدهـــــر بعيش معجل التنكيـــد
ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيامي وقل عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في ســـعود

فهو في هذه القصيدة وأمثالها يعبر تعبيراً صادقا عن ضيقه بالبلاد وما فيها ومن فيها ، ويعبر عن طموحه أو غروره بنفسه التي ضاقت بالحيـــاة وضاقت بها الحياة .

وكان يندفع أحياناً كما قلت مع أحلام يقظته إلى ثورة دموية لا يستطيعها في اليقظة فيخاطب نفسه قائلا :

عش عزيزاً أو مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيـــــظ وأشفى لغل صدر الحقود

ولكن تلك الثورة لم تكن إلا في الخيال مع أحد الأحلام التي كان لا يلبث أن يراها بعيدة عن الواقع ، فلو كان يريد أن يجد له مكاناً في عالم القنا والبنود لوجـد ذلك المـكان ، لو كانت له موهبة الطعن والضرب . ولكنه لم يكن سوى شاعر موهوب لم يجد بعد فرصة في اظهار موهبته الحقيقية لأنه لم يجد وسيلة بعد إلى الإلهام .

كانت الحروب في ذلك العصر جديرة بأن تبلغ المتنبي ما يصبو اليه لو كانت موهبته الحربية تؤهله إلى التبريز في ميادينها ، ولكنه كان ثائراً غاضباً ولم يكن محاربا . لم يكن سوى شاعر موهوب ولكنه مغرور بمقدراته التي لم يهبها الله له .

ومع هذا فهو يقول مدعياً :

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهذه نظرة المعجب بنفسه لا نظرة من كانوا يرونه في زمانه .

وأما سبيله إلى المـكانة الاجتماعية عن طريق التقرب إلى الرؤساء والأمراء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في عصره فقد كانت مغلقة أمامه لأنه كان يشعر في أعماقه باحتقار هؤلاء جميعاً . وكان احتقاره لهم يحول بينه وبين الإبداع فالشاعر لا يبدع إلا إذا كان ممتلئاً بموضوع شعره مؤمناً به مستغرقاً فيه بروحه كي يواتيه الإلهام والإبداع .

فكان لا يجد ما يملأ به فراغ مدائحه الزائفة التي كان يشعر في أعماقه بخنوها من الصدق إلا بأن يخلع عليها لوناً من البريق الزائف ، ببلاغيات متكلفة من صناعة الأسلوب الشعري المعروف في زمانه ، وبعبارات لفظية متأنقة وان كانت خالية من الروح . ونشير هنا إلى أمثلة من تلك الألفاظ الجوفاء :

فيقول في أحد ممدوحيه :

لو كان فيض يديه ماءَ غادية ... عز القطا في الفيافي موضع اليبس

ويقول في ممدوح آخر :

لم يخلق الرحمن مثل محمد ... أحداً وظني أنه لا يخلق

أمطر عليّ سحاب جودك ثرةً ... وانظر اليّ برحمة لا أغرق

كذب ابن فاعلة يقول بجهله ... «مات الكرام» وأنت حي ترزق

ويقول في آخر من ممدوحيه :

فتىً الف جزء رأيه في زمانه ... أقل جُزَيء بعضه الرأي أجمع

وقد يغلو في المبالغة الجوفاء كما قال في أحد ممدوحيه :

إذا خلت منك حمص لا خلت أبداً ... فلا سقاها من الوسمي باكره

من قال « لست بخير الناس كلهم » ... فجهله بك عند الناس عاذره

أو شكّ أنك فرد في زمانهم ... بلا نظير ففي روحي أخاطره

وقد يهبط في مبالغاته إلى الحط من كرامة نفسه مع كبريائه ، والزراية بالكرامة الإنسانية نفسها في مثل قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى سيد لو بشر الله أمة بغير نبي بشرتنا به الرسل
الى القابض الأرواح والضيغم الذي تحدث عن وقعاته الخيل والرجل
وما تنقم الأيام ممن وجوهها لأخمصه في كل نائبة نعل
وما عنده فيها مراد أراده وإن عز ، إلا أن يكون له مثل

وقد تلجئه هذه المبالغات الخابية إلى وصف فاتر لا تخلع على قوله جمالاً صناعياً بل تخلع عليه قبحاً ممجوجاً ، مثل قوله :

بشر تصور غاية في آيه تنفي الظنون وتفسد التقييسا
وبه يُضن على البرية ـ لا بها ـ وعليه منها ـ لا عليها ـ يوسى

ومثل قوله :

متى ما يشر نحو السماء بوجهه تخر له الشعرى وينكسف البدر
ترى القمر الأرضي والملك الذي له الملك بعد الله والمجد والذكر

هذه أمثلة من شعره الفاتر في أول حياته من قصائده التي تسمى « الشامية الأولى » والعراقية الأولى وهي جميعاً لا تتجاوز معنى واحداً مكرراً في صور شتى من العبارات المتأنقة وهو قوله : « إنك أيها الممدوح السيد الواحد الذي يفوق الناس جميعاً ، والناس جميعاً فداء لك وهم لا يستحقون أن يكونوا فداء لك . »

والسر في هذا الإجداب الأدبي في الشعر عامةً وفي شعر أبي الطيب أيضاً هو الإجداب الشامل من سياسي واجتماعي في العصر كله . كان العالم العربي في ذلك الوقت مجدباً الى حد اليأس من كل ما يحرك النفوس من مثال بطولة أو مثال أمل . الأمراء أو أكثرهم الأكثر طائفة من الأتانيين مع كل منهم طائفة من السادة المزيفين الذين لا هم لهم الا الابتزاز من الشعوب التي يسيطرون عليها . الأمراء لا هم لأكثرهم إلا النظر إلى مصالحهم الخاصة في أفق ضيق ، يتنازعون ويتنافسون ويتحاربون حروباً صغيرة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكل منهم يريد أن ينفذ سياسة موضوعة له من الدولتين الكبيرتين المحيطتين بهم . فبعض الأمراء يشترك في مؤامرة يدبرها لهم المسيطرون على سياسة الدولة العباسية بالعراق ، وبعضهم يشترك في مؤامرة أخرى يدبرها لهم المسيطرون على سياسة الدولة الفاطمية بمصر . امارات كلها قصيرة النظر ضحلة الهمة يدفعها دافع الجشع الشخصي والمطمح المادي . والسادة المتصلون بالأمراء ينسجون على منوال أمرائهم ، فكل منهم يشترك في حزب مناصر لإحدى الدولتين الكبيرتين . فكانت الأحوال السياسية والاجتماعية مصطبغة بألوان الجشع الشخصي والمطامح المادية الخسيسة . وهذه الحالة العامة هي مقدمة محتومة للنتائج المحتومة التي ترتبت عليها فيما بعد حين أغار الصليبيون على الحدود الشمالية في حملاتهم المعروفة في أواخر القرن الحادي عشر بعد الميلاد . مجتمع متفكك وفي داخله السوس وعوامل الفناء تعمل فيه من أعلاه في الطبقة المسيطرة سواء كانت سياسية أو اجتماعية . فاذا أراد أديب في ذلك العصر أن يكون صادقاً في تعبيره عن شعوره فلا مجال له في الصدق إلا أن يندب حظه وحظ قومه العرب لما آلت اليه أمور العرب من الفساد والاضمحلال . واذا أراد أحدهم أن يمدح أميراً أو سيداً من السادة ذوي السيطرة في المجتمع فليس له من وسيلة الى مدحه إلا أن يكذب وأن يعزز أكاذيبه بأسلوب لفظي أو وسيلة بلاغية براقة تخدع الناس عن الحقيقة البشعة الماثلة في حياتهم ، وتحاول أن تخلع على المرح الأجوف غشاءً من التمويه يستثير فيهم الإعجاب بالعبارات الجوفاء . لهذا كان كل ما قيل في النقد الأدبي في ذلك العصر لا يزيد على نقد الأساليب البلاغية اللفظية البعيدة عن المعنى وعن الروح الأدبي نفسه .

ولكن من حسن حظ الأدب العربي أن كانت في ذلك العصر فلتة من الفلتات بين أمراء ذلك الوقت المجدب وهو الفارس الحقيقي والبطل العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سيف الدولة ـ أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان الذي وقف حياته لتحقيق غاية جليلة بالتصدي للدفاع عن الحدود العربية برغم ما كان يسود أمراء العصر والسادة في الأمة العربية من أنانية وتحاسد وتناحر في سبيل مصالحهم الخاصة . فحين رأى أبو الطيب ذلك الفارس البطل ـ وأغلب الظن أنه رآه بغتة عن غير انتظار ـ أدرك بفطرته أنه حيال أمير فارس من نوع آخر غير الأمراء الذين اتصل بهم . فتعلق قلب أبي الطيب بذلك الفارس تعلقاً تلقائياً يشبه تعلق المحب بمحبوبه من أول نظرة . وكان بغير شك قد سمع عن بطولته وحروبه مع الدولة البيزنطية التي كانت منذ ابتداء تكوين الدولة العربية هي العدو والمنافس الخطير لها . وكان سيف الدولة في زيارة لأنطاكية بعد انصرافه منتصراً عن حصن برزونة وهو أحد الثغور الأمامية بين العرب والروم . فلما رآه المتنبي عائداً بالنصر والفتح أحس بهزة دفعته تلقائياً الى التعبير عن إعجابه فأنشد قصيدته التي قال في مطلعها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فهذا المطلع على ما فيه من غموض وتعقيد وتكلف يتصدر قصيدة فيها تعبير صادق عن إعجابه بالبطل العربي إذ يقول مستمراً بعد المطلع :

وما أنا إلا عاشق ـ كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لايلائمه

وفي هذين البيتين يقول أبو الطيب في صراحة بأن كثيراً من المدح يصدر عن شعراء يقولون الشعر فيمن لا يستحق المدح وان البطل الحقيقي قد يتصل بشاعر يمدحه وهو شاعر مزيف لا يلائم مجده .

ومضى في مدح سيف الدولة قائلا :

ملكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله وخاطبت بحراً لا يرى العبر عانمه
غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذي طماطمه

ففي هذه الأبيات يعلن المتنبي في صراحة أنه سلك صروف الدهر حتى اهتدى الى البطل الجدير بشعره والى الموضوع الجدير بأن يهب له عبقريته في فنه ، ويعلن أيضاً أنه قد وجد البطل الذي يملأ قلبه وبصره ، ذلك البطل الذي جعله يغضب حين رأى صفاته الجليلة تخفى عن الإعلان بين الناس لأنها لا تجد واصفاً جديراً بالإعلان عنها على أن الشعر الزائف تهذي طماطمه في مدح أمراء لا يصدق فيهم المدح ولا يصدر عن الشعراء فيه الا هذيان من ألفاظ طنانة جوفاء لا تنطوي على روح أو صدق .

لقد أحسّ أبو الطيب في ذلك الموقف أنه قد اهتدى الى البطل الذي يصلح أن يكون موضوعاً لشعره ، وأنه يستطيع أن يبدع في وصف هذا الفارس وفي تخليد فضله ، واعلانه بين الناس ، لأنه سيجد الإلهام القوي الصادق في فروسيته وكرم خلاله . وقد صدقت فراسة أبي الطيب في ذلك الموقف فان شعره في الفارس الحمداني هو الذي خلده على صفحات التاريخ وهو الذي أعلن عن فضله وأغنى اللغة العربية بمدحه الصادق الملهم الموحي بالحياة والجمال .

وحين أراد سيف الدولة أن يغادر أنطاكية أحس أبو الطيب بانزعاج أشد من انزعاج المحب حين يؤذن محبوبه بفراقه . فهو يقول له عند ذلك :

أين أزمعت أيهذا الهمام نحن نبت الربى وأنت الغمام
نحن من ضايق الزمان له فيك وخانته قربك الأيام

فهي صيحة عالية تعبر عن مدى فزع الشاعر وانزعاجه لأن البطل الذي اهتدى اليه بعد طول اضطرابه في الأرض فاهتدى الى الموضوع الذي يلهمه فجأة ، وعلى غير قصد يزمع ان يفارقه فيدعه يعود الى حيرته واضطرابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإجدابه . إنه كان يبحث عن موضوع يتيح له الإلهام ويمكنه من الإبداع في فنه ؟ وما كان أشد فجيعته حين أزمع هذا البطل أن يفارقه فيحرمه من الفرصة التي تتيح له الإلهام . انها فجيعة تشبه إلى حد بعيد ما يشعر به الموحى إليه حين يوشك الوحي أن ينقطع عنه . فأبو الطيب يخاطب سيف الدولة قائلا :

« أين تريد الذهاب بعيداً عنا مع أنك قد بعثت إلى قلوبنا من الحماسة لبطولتك والاعجاب بشخصك النبيل ما بدأ يحرك فينا نشوة الشعور الصادق الذي يحرك إلى الإبداع . اننا قد وجدنا فيك ما يروي في قلوبنا ما فيها من التعطش إلى البطولة في عصر قد عرفناه وجربنا إجدابه وحاجته إلى بطولتك وعلو نفسك . لقد كنا مجدبين فأدركنا بلقائك من كان بالنسبة إلينا صوب الغمام فصرنا به نبتاً فوق الربى .

لم يكن سيف الدولة محارباً فارساً فحسب ، بل كان مع شجاعته يمثل معنى آخر لم يشاركه فيه غيره من الفرسان . كان يحارب من أجل غاية سامية ومقصد عال . أعلى جلالاً من الانتصار في الحرب . فيقول أبو الطيب لسيف الدولة :

في سبيل العلى قتالك والسلـــــم وهذا المقام والإجذام
ليت أنّا إذا ارتحلت لك الخيـــــل وأنّا إذا نزلت الخيـام
كل يوم لك احتمال جديد ومسير للمجد فيه مقـــام

فهو بذلك يخاطب الأمير العربي الذي وقف حياته على الدفاع عن الحدود العربية في وجه الدولة البيزنطية التي استمرت في حربها منذ قبيل الإسلام إلى العصر الذي عاش فيه أبو الطيب . فكان مثالاً عالياً لسلسلة من أبطال العرب الذين جمعوا بين الشجاعة في الحرب والتمسك بالمثل العليا في الشهامة التي صارت تقليداً للفارس النبيل منذ أيام خالد بن الوليد وسار على مثاله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مسلمة بن عبد الملك فالمعتصم العباسي . كان أبو الطيب يراه في هالة من البطولة العربية في عصر طالما ضاق به الشاعر إذ كانت السيادة فيه وقفاً على الأمراء غير العرب الذين كانوا يبيعون سيوفهم لسادة العرب لقاء اخضاع شعوبهم لسيطرتهم واذلالهم لها .

ففي هذا الموقف يعلن أبو الطيب أنه قد اهتدى الى ضالته ويجهر بشعور الفزع الذي اعتراه حين رأى ان ضالته توشك أن تفارقه . فقد وجد في هذا الأمير الشاب والفارس العربي النبيل موضوعاً يستطيع أن يلهمه بكل معنى جليل صادق يغنيه عن التماس الجمال في أسلوب التعبير الصناعي والعبارات البلاغية اللفظية التي يملأ بها فراغ شعره من الصدق والعاطفة . وكان أبو الطيب منذ بدء حياته يحاول أن يجد لنفسه مكاناً في الحيـــاة بالتقرب إلى أمير أو إلى سري من ذوي الجاه والسيطرة يستند إليه ويقيم في ظله . ولكنه كان كلما وجدَ ما يظنه ظلاً وارفاً لا يزيد في حقيقته على ظل باهت خادع يكلفه أن يكون مرتزقاً بشعره لا شريكاً في انشودة مجيدة ؛ فيبدأ قصائده بقطع من الغزل الكاذب ، وقد يدخل فيها بعض الشعر الصادق في شكوى زمانه ووصف بؤسه وشقائه في الحياة وثورته عليها . فحين خيل إليه أنه قد وجد موضوعه في الفارس النبيل الذي يستطيع أن ينصرف بفتة إليه والتغني ببطولته أخذ يتجه بفنه إلى أسلوبه الجديد فيما نسميه « السيفيات» التي يمتاز شعره فيها بالصدق والسهولة والبساطة الطبيعية في تصويره .

فيقول في أسلوبه الجديد يخاطب سيف الدولة خطاباً مباشرا .

كلما قيل قد تناهى أرانا كرماً ما اهتدت إليه الكرام
وكفاحاً تكع عنه الأعادي وارتياحاً يحار فيـه الأنام
انما هيبة المؤمّل سيف الدو لة الملك في القلوب ، حسام
فكثير من الشجاع التوقي وكثير من البليغ السلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالصدق وحده كفيل بتصوير البطولة والشهامة لأن الشاعر كان ينبعث فيه عن مثال حي صادق أمامه .

ويعترف بهذا في انشاده حين يقول :

فلو قَدَّر السنان على لسان لقال لك السنان كما أقول

فيعترف بأن الشعر الذي يقوله في مدح سيف الدولة لا يزيد على حكاية ما يقوله السنان عنه ولا يزيد عليه شيئاً من مخترعات القول المنمقة الزائفة .

وحسبنا في الإشارة إلى طريقة المتنبي الجديدة في شعره أن نذكر قصيدته التي يقول في مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فهو لم يقدم لقصيدته بمدخل متكلف يفضي به الى انشاده بل ابتدأ الابتداء الطبيعي الذي يدل على ما امتلأ به قلبه من شعور الإكبار نحو سيف الدولة ، ثم مضى يتدفق بما يوحيه ذلك الإكبار ، فلا نجد في قصيدته بيتاً متكلفاً ، ولا نلمح في بيت من أبياتها تعمد تجميل الأسلوب برصيعة براقه مصطنعة . وفيها يصور منظر البطل وهو في ساحة القتال كأنما هو مصور بارع يلتقط منظراً يعبر فيه بريشته عن الروح الذي يسري في المنظر كله ولا يزيد على تسجيل الحقيقة شيئاً إلا بمقدار ما يشحنها بشعوره :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى حد قول أنت بالغيب عالم

وقد أقام المتنبي مع سيف الدولة ما أقام فكان في كل قصيدة ينشدها له يتدفق مع شعوره الصادق ويعبر فيها عن إعجابه واستغراقه في موضوعه ، وقد يصف في ثنايا شعره ما يخامره من الألم اذا شعر بألم من إغفاءة غير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مقصودة من الأمير أو من لفتة غاضبة غير مقصودة أيضاً . فهو في ذلك كله يعبر عن أعمق وجدانه صادقاً بليغاً متدفقاً مبدعاً .

ولم يكن شعور أبي الطيب نحو سيف الدولة مقتصراً على بعث الحياة في أشعاره السيفية وحدها ، فان صورة الفارس البطل وشعور الإعجاب به والمحبة له لم يفارقه حين غضب غضبته من الأمير وفارقه وذهب ينشد شعره الى آخرين من الأمراء والملوك الذين كانوا يتنافسون على الاستئثار بفنه ، فكانت صورة سيف الدولة تبدو له كلما وقف ينشد بين يدي أمير أو ملك آخر . وكانت الصورة تهمس له وتثير نفسه برغمه فيأخذ في مناجاتها والانشاد لها . فهو في انشاده لكافور في مصر ينسى أنه يخاطب ذلك الملك ويبدأ قصيدته بالتعبير عن حزنه لفراق صديقه وبطله . فيخاطب قلبه قائلا :

أقِلّ اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفي الود من ليس جازيا

ثم ينتقل بعد حين الى مدح كافور فيغير أسلوبه من الصدق الطبيعي المملوء حرارة الى أسلوبه القديم المتكلف الذي يتصيد فيه المعاني الخاوية ليملأ بها فراغ معانيه بالعبارات البلاغية الكاذبة فيقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

ويخاطب الملك الأسود ـ انسان عين زمانه ـ قائلا :

ابا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً اليه وذا الوجه الذي كنت راجيا
أباكل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا
يدل بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

فلما نزح الشاعر عن مصر كارهاً بعد أن أمضه فيها ألم الجسم والروح معاً وذهب الى العراق لم تفارقه صورة سيف الدولة ولازمه أسفه على فراقه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيكون في انشاده لعضد الدولة معبراً عن شدة حزنه لفقد صداقة بطله الكريم لا مادحاً الأمير الذي وقف بين يديه فيقول :

أوّه بديلٌ من قولتي واهـــا ... لمن نأت والبديل ذكراهـــا
أوه من آلا أرى محاسنهـــا ... وأصل واهاً وأوهِ مرآهـا
شامية طالما خلوت بهـــا ... تبصر في ناظري محياهـــا
فقبلت ناظري تغـــالطني ... وإنما قبلت به فاهـــا

ولولا خوف الإطالة لأفضت في بيان ما تدل عليه هذه الصورة من الشعور القوي نحو سيف الدولة الذي فارقه الشاعر مع كل إعجابه به وحبه له .

لقد كانت صورة البطل لا تفارق الشاعر وهو بعيد عنه ، وكانت تملي عليه الشعر في كل موقف وقفه بعد فراقه له . فلا يبدو الصدق في شعر المتنبي بعد فراق سيف الدولة إلا حين كان يعبر عن أسفه لذلك الفراق أو كان يعبر عن مقته لأصحاب السلطان الآخرين في الأمة العربية الذين كان أبو الطيب يؤمن بأنهم قد اختلسوا السيادة في هذه الأمة وهم غير جديرين بهـــا .

محمد فريد أبو حديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net